العرب
الأحد 2020/03/29
السنة 42 العدد 11661

إيران وكورونا... وسلطة رجل الدين

عقلية تقاوم الفايروس أم تزيد من انتشاره؟

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

من المستغرب أن يعرض قائد "الحرس الثوري" الإيراني حسين سلامي مساعدة الولايات المتحدة في جهودها للحدّ من انتشار وباء كورونا. يذكّر عرضه بالمثل الفرنسي القائل: من حسن الحظّ، أن السخف لم يعد يقتل.

لا شكّ أن وباء كورونا يهدّد أميركا التي زاد عدد المصابين فيها على عدد الذين أصيبوا في الصين التي كانت المركز الذي انتشر منه الوباء. تبدو الولايات المتحدة مقبلة على أيّام صعبة، لكن الأكيد أن "الجمهورية الإسلامية" لا يمكن أن تساعدها في شيء، أقلّه بسبب حال التخلّف التي تعاني منها والتي جعلتها مصدرا لتصدير كورونا إلى دول المنطقة في مقدّمها سوريا.

هل تتمكن إيران من التكيّف مع هذا العالم الجديد الذي سيولد من رحم وباء كورونا... أم تستمر في ممارسة سياسة قائمة على رفض الشفافية ولغة الأرقام والهرب إلى خارج حدودها

ليس سرّا أن لبنان كان ضحيّة من ضحايا الرغبة الإيرانية في تصدير كورونا، عن قصد أو غير قصد. الأكيد، بعيدا عن الحكم على النيّات الإيرانية، أن الجهل يتحكّم بتصرفات كبار المسؤولين فيها، بما في ذلك "المرشد" علي خامنئي الذي تحدّث أخيرا عن "مؤامرة" تتعرّض لها إيران وعن تطوير أميركا لفايروس يستهدف "جينات الإيرانيين".

آن أوان ممارسة إيران التواضع والاعتراف بأن لا عيب من الحصول على مساعدة أميركية بدل متابعة سياسة قائمة على الهرب من الواقع. إن وباء كورونا الذي أقفل الكرة الأرضية على القاطنين فيها سيولد منه عالم جديد وقيم جديدة لا علاقة لها بتلك السائدة حاليا. هل تتمكن إيران من التكيّف مع هذا العالم الجديد الذي سيولد من رحم وباء كورونا... أم تستمر في ممارسة سياسة قائمة على رفض الشفافية ولغة الأرقام والهرب إلى خارج حدودها بحثا عن تنفيذ مشروع توسّعي. يستند هذا المشروع إلى إثارة الغرائز المذهبية. إنّه مشروع أقرب إلى الوهم من أي شيء آخر. هل تكتفي إيران بكمّية التخلّف والبؤس اللذين نشرتهما في المنطقة منذ العام 1979... أم أنّها تبحث عن نشر مزيد منهما مع رشّة كورونا للزينة لا أكثر؟

ما فعلته إيران إلى الآن مخيف، بل مخيف جدّا إذا نظرنا إلى الدور الذي لعبته في تصدير كورونا إلى لبنان وإلى سوريا وحتّى إلى العراق. هناك طائرات نقلت إلى لبنان مصابين بكورونا في ظروف أقلّ ما يمكن أن توصف به أنّها مريبة. لكنّ الأخطر من ذلك كلّه، ما حصل في سوريا حيث يوجد موقعان إيرانيان، هما مزاران دينيان، أصبحا أشبه بمنطقتين عسكريتين بعدما سيطرت عليهما الميليشيات التابعة لإيران، بما في ذلك "الحرس الثوري". يقع المزاران قرب دمشق وهما موقع السيّدة زينب وموقع السيدة رقّية الذي لا يبعد كثيرا عن المسجد الأموي.

بقي الزوار الشيعة الإيرانيون يتدفقون على المزارين حتّى يوم السادس عشر من آذار – مارس الجاري. أدّى إغلاقهما أمام الزوّار إلى اعتراضات صدرت عن متطرّفين يعتقدون أنّ المزارات الشيعية محصّنة تجاه كورونا بفضل قدرة إلهية ما. في المقابل لم يتخّذ النظام السوري، الذي بقي طويلا ينفي كلّيا وجود أي انتشار لكورونا في الأراضي السوريّة، أيّ إجراءات عملية قبل يوم الرابع عشر من آذار – مارس عندما أوقف الرحلات من مطار دمشق مستثنيا شركة "ماهان" الإيرانية التابعة لـ"الحرس الثوري".

لم يعد خافيا أن إيران في حال يرثى لها بسبب المكابرة التي تتعاطى بها مع وباء كورونا. يرافق هذه المكابرة تفاد لأيّ إجراءات حقيقية لمنع انتقال كورونا من إيران إلى دول أخرى في مقدّمها سوريا التي تعاني أيضا من مشكلة كبيرة أخرى حذرت منها منظمة الصحة الدولية (WHO).

حذرت منظمة الصحّة من كارثة في إدلب بعد انتشار وباء كورونا في مخيمات اللاجئين السوريين الذين هربوا من البراميل المتفجرة للنظام ومن قصف الطائرات الروسية وبطش الميليشيات التابعة لإيران.

لم يعد كافيا كلام المسؤولين السوريين عن "رشح قوي" كي لا ينتشر وباء كورونا في دمشق وغيرها في بلد لا يمتلك أيّ بنية تحتية صحّية، على الرغم من أن آلاف الأطباء السوريين منتشرون في مستشفيات أوروبا والولايات المتحدة. فوق ذلك كلّه، ماذا سيفعل النظام السوري الذي لديه عشرات آلاف المعتقلين في سجونه عندما يدخل كورونا هذه السجون؟

تحوّلت سوريا إلى بؤرة من بؤر نشر كورونا في المنطقة. كلّ ذلك بسبب إيران التي لم تنتبه منذ البداية إلى وجود طلّاب صينيين ينتمون إلى الأقلّية المسلمة يتابعون دراستهم الدينية في قم. نقل هؤلاء الطلاب كورونا إلى إيران بدءا من قم.

هذا واقع لا مجال للهرب منه. بدل نفي الواقع، ثمّة حاجة إلى نقلة نوعية تساعد إيران، كما تساعد الدول التي باتت تحت رحمة إيران مثل العراق وسوريا ولبنان. تقضي هذه النقلة النوعية بالتفكير من الآن، بأنّ ما قبل كورونا ليس كما بعدها وأنّ ثمّة حاجة إلى اهتمام إيران بالإيرانيين أوّلا في ضوء التأكّد من أن ليس لديها أيّ بضاعة مفيدة تستطيع تقديمها إلى العالم.

هناك نصّ للمفكّر الفرنسي جاك أتالي يصلح لأن يقرأه المسؤولون الإيرانيون وغيرهم من الذين ما زالوا أسرى الوهم الإيراني في المنطقة من رافعي شعارات "الموت لأميركا، الموت لإسرائيل، اللعنة على اليهود".

جاء في النص الذي صاغه أتالي، الذي كان مستشارا للرئيس فرنسوا ميتران، أن أيّ كارثة كبيرة ناجمة عن وباء "أدت إلى تغييرات أساسية في البنية السياسية للأمم وفي الثقافة التي تنطوي عليها هذه البنية". أعطى مثلا على ذلك وباء الطاعون الذي انتشر في أوروبا في القرن الرابع عشر وقضى على ثلث سكّان القارة. أوضح أن ذلك أدى إلى "إعادة نظر في الموقع السياسي لرجل الدين" في أوروبا. صبّ هذا التطوّر في مصلحة قيام مؤسسة الشرطة التي باتت القوة الوحيدة التي تحمي الناس بعد فشل الكنيسة في لعب هذا الدور.

اختزل نتيجة ما حصل بأنّ "الشرطي حلّ مكان الكاهن". وأشار إلى أنّه نتيجة الأوبئة التي انتشرت في القرن الثامن عشر، حلّ الطبيب مكان الشرطي. توصّل أتالي إلى خلاصة فحواها أن أوروبا انتقلت خلال بضعة قرون من سلطة الدين، الممثّلة بالكنيسة، إلى سلطة القوّة، ممثلة بالشرطي، ثم إلى سلطة دولة القانون، وذلك نتيجة انتشار الأوبئة الخطيرة التي كشفت أن الكنيسة لا تستطيع أن تفعل شيئا في وجهها وأن لا بدّ في النهاية من اللجوء إلى الطبيب.

لا تزال "الجمهورية الإسلامية" أسيرة رجل الدين الذي يمثّله "المرشد" والشرطي الذي يمثّله "الحرس الثوري". لا وجود لإدراك أن العالم يتغيّر سريعا وأنّ وباء كورونا ليس حدثا عابرا وأنّ القويّ الذي سيبقى هو من يمتلك سلاح المعرفة والعلم. أين إيران من المعرفة والعلم بعدما أسقطت طائرة الركّاب الأوكرانية بالطريقة التي أسقطتها بها؟

الأجانب والفقراء متّهمون وإن ثبتت براءتهم

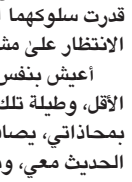

علي قاسم
كاتب سوري مقيم في تونس

أمام باب المصعد، في الطابق الثامن، يتراجع جاري وزوجته بلطف وأدب لأترك المصعد قبلهما. بالطبع قدرت سلوكهما اللبق، لأفاجأ أنهما فضلا الانتظار على مشاركتي المصعد.

أعيش بنفس المكان منذ 12 عاما على الأقل، وطيلة تلك الفترة كانا يسكنان بمحاذاتي، يصافحانني ويتبادلان الحديث معي، وبالطبع أشاركهما المصعد دون تردد.

فجأة تغير كل شيء، هل المسؤول عن ذلك، كما يقال، هو انتشار فايروس كورونا، أم هي ثقافة الخوف من الآخر، وأنا لسوء حظي واحدا من هؤلاء الموصوفين بـ"الآخر".

الخوف من الآخر ليس وليد اليوم، بل هو شعور رافق الإنسان منذ أن وجد، ولم يكن الآخر بالضرورة كائنا آدميا، بل هو أحيانا حيوان أو ظاهرة طبيعية.

يوجه اللوم إلى الحروب باعتبارها مصدرا للخوف من الآخر، بينما تقدّم تفسيرات أخرى ترى أن الخوف من الآخر هو مسبب الحروب والنزاعات.

وإن كانت خشية الآخر قد نشأت في البداية بوصفها ردّ فعل غريزي للحفاظ على البقاء، إلا أنها تطورت مع الزمن لتصبح نتاجا ثقافيا يرتبط بالخيال الشعبي والموروث الثقافي والديني.

في القرون الوسطى، كان اليهود مصدر الأوبئة في المخيلة الأوروبية العامة، وخلال جائحة الطاعون الذي عرف بـ"الموت الأسود"، في منتصف القرن الرابع عشر، تعرضت جاليات يهودية للإبادة في عواصم أوروبية، بعد أن ألقي اللوم عليهم باعتبارهم سببا لانتشار الطاعون.

وكان اليهود قد سبقوا الأوروبيين إلى إبداء الخوف من الآخر، ولم يقتصر حكمهم بالنجاسة على الآخرين، بل شمل أيضا جدران بيوتهم، وقطع الأثاث، حتى التراب حكموا عليه بالنجاسة، ورأوا أن اليهودي إذا اشترى أو استعار أدوات مطبخ من الغرباء، عليه أن يطهرها بعناية قبل أن يستخدمها.

الآخر المختلف، في المخيال الشعبي، ليس فقط الأجنبي، بل الفقراء أيضا، كانت الطبقات الأرستقراطية وأثرياء أوروبا يهربون إلى الريف، يعزلون أنفسهم تجنبا للاحتكاك بالفقراء داخل المدن الكبيرة المكتظة بالسكان.

لم تبدل التأثيرات الثقافية سلوك الطبقة الأرستقراطية، وإن باتت تتصف باللباقة والتهذيب، ما زال أفراد تلك الطبقة متمسكين بكل عاداتهم، خاصة نظرتهم لـ"الآخر"، ومع تفشي وباء كورونا، انسحبوا من المدن إلى قصورهم الريفية.

تحول الخوف من فايروس كورونا إلى رهاب، ما أن يذكر حتى تتبادر إلى الذهن صورة للآسيويين. ليس فقط لأن منشأ الفايروس هو مدينة ووهان، وهي مدينة صينية، وليس أيضا لأن قائمة الطعام في الصين تحتوي على أصناف تعتبر غريبة عن الذائقة الأوروبية.

"أنا لست فايروسا، كفّوا عن العنصرية"، تغريدة لشاب فرنسي من أصول آسيوية، لم يسبق له أن قام بزيارة إلى الصين، تحولت حياته في فرنسا إلى جحيم، بسبب التمييز الذي يطاله في كل مكان يذهب إليه، بعد انتشار كورونا، لذا لجأ مع مجموعة من الشباب الآسيوي، للتعبير عن استيائهم من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، عبر وسم (#JeNeSuisPasUnVirus أنا لست فايروسا).

وكانت صحيفة فرنسية محلية، قد أثارت حفيظة متابعيها، إثر نشرها صورة لامرأة صينية ترتدي كمامة كتبت على غلافها الخارجي عبارة "إنذار أصفر". واضطرت الصحيفة تحت وطأة الانتقادات، للاعتذار، قائلة إنها لم تكن تقصد الإساءة.

رغم ذلك، أعاد العنوان للأذهان عبارات عنصرية قديمة صوّرت عادات الآسيويين وطعامهم بأنها غير آمنة وغير مرحّب بها.

واستخدم مصطلح "الإنذار الأصفر" أول مرة في القرن التاسع عشر مع انطلاق موجة الهجرة الصينية الأولى إلى الولايات المتحدة. وانطوى المصطلح آنذاك على نزعة عدائية تجاه الآسيويين عموما.

ولم تقتصر تلك الحوادث على فرنسا، إذ تناقل مغردون في كندا ونيوزلندا تقارير تفيد بتعرض أطفال من أصول آسيوية للتنمر في المدارس.

ولكن، لماذا عند الحديث عن الأوبئة تحضر الصين إلى الأذهان؟ حتى فايروس الأنفلونزا الإسبانية، الذي اجتاح العالم عام 1928، هناك من يقول إن منشأه هو الصين.

ورغم كل الحديث الذي دار حول منشأ الفايروس، ليس هناك ما يثبت تطور المرض في الصين.

إنها الصورة المسبقة التي رسخت في الأذهان، وغالبا بتأثير من صناع السينما في هوليوود، الذين أدمنوا تقديم المدن الصينية على أنها مثال، ليس فقط للجريمة، بل للازدحام والقذارة، وكل العادات الغريبة أيضا.

مازالت نشأة فايروس كورونا غامضة، ومجالا لتبادل الاتهامات بين واشنطن وبكين، واليوم فاق عدد المصابين بالفايروس في الولايات المتحدة عدد المصابين في الصين، وقارب عدد المصابين في إيطاليا العدد الذي وصلته المدن الصينية، مسجلة عددا أكبر من الضحايا.

أطباق الطعام في أوروبا، تحتوي على أصناف لا تقل غرابة عن الأصناف الصينية؛ في أوروبا يعتبر الحلزون وأرجل الضفادع طعاما مميزا تأكله النخبة.

نجح الكاتب الأميركي، شلدون واتس، في كشف العلاقة بين المرض وما يترتّب عليه من أبعاد أخلاقية ثقافية ودينية وطبقية وعرقية. وقدم في كتابه "الأوبئة والتاريخ" شرحا للآليات التي ساهم فيها الطب الغربي في نشر الأوبئة، وتدمير الثقافات المحلية من خلال وسائلها التقليدية في التعامل مع المرض، وإخضاع المجتمعات المستعمرة لإجراءات مؤسَّسة على نظريات خاطئة في أحيان كثيرة، وذات نتائج كارثية.

إن كانت خشية الآخر قد نشأت في البداية بوصفها ردّ فعل غريزي للحفاظ على البقاء، إلا أنها تطورت مع الزمن لتصبح نتاجا ثقافيا يرتبط بالخيال الشعبي والموروث الثقافي والديني

الحذر من الآخر، ليس بالضرورة باتجاه واحد، الصينيون أيضا بدأت تبدو عليهم أعراض الرهاب، حتى وإن كان ذلك ردة فعل فقط.

وتستعد بكين لإغلاق البلاد أمام الأجانب، لكبح وصول حالات قادمة من الخارج، بعد أن أعلنت أنها استطاعت وقف انتشار المرض. المنع سيطال الأجانب الذين يحملون تأشيرات سارية وتصاريح إقامة، ويدخل الحظر حيز التنفيذ بداية من اليوم.

بعد كتابة هذه السطور، وسماع التعليقات على الأخبار، التي قالت إن عدد الإصابات تجاوز النصف مليون، دفعني الفضول لتقليب صفحات كتاب "إغاثة الأمة بكشف الغمة" للمؤرخ، تقي الدين المقريزي، لتقع عيناي على هذه الكلمات "ودخل فصل الربيع فهبّ هواء، أعقبه وباء وفناء، وعدم القوت، حتى أكل الناس صغار بني آدم من الجوع". نظرت إلى شوارع المدينة التي خلت من الحركة، واتجهت إلى السرير قاصدا النوم.. ولكن كيف؟